كلية اللغة العربية بأسيوط
المجلة العلمية
---

# طاعون جستنيان ومصير الإمبراطورية الرومانية (٥٤١- ٧٥٠ م.).

إعداد

د . أبوبكر حسني عيسى أحمد سرحان
مدرس التاريخ القديم
كلية الدراسات الأفريقية العليا- جامعة القاهرة

( العدد الأربعون )
( الإصدار الأول ـ الجزء الرابع)
( ١٤٤٢هـ / ٢٠٢١م )

# طاعون جستنيان ومصير الإمبراطورية الرومانية

(٥٤١- ٧٥٠ م.).

أبوبكر حسني عيسى أحمد سرحان
قسم التاريخ ، كلية الدراسات الأفريقية العليا، جامعة القاهرة، مصر.
البريد الإلكتروني: Abobakr.sarhan@cu.edu.eg

**الملخص**:

يبدو أن روما تعاقبها الأقدار الطبيعية أيضًا، والمتمثلة في الأوبئة والأمراض، وأهمها دراسة وأشدها بأسًا وتنكيلًا هو طاعون جستنيان الذي بدأ عام ٤٣١ م. وامتد أثره حتى ٧٥٠م. والذي أدى إلى تخلخل أركان الإمبراطورية الرومانية وولاياتها، فكان من رأي شيشرون (Marcus Tullius Cicero)(١٠٦- ٤٣ ق.م.) وفارو (Marcus Terentius Varro) (١١٦- ٢٧ق.م.) أن النسور الاثني عشر التي رأها "روميولوس" مؤسس روما؛ إنما تمثل القرون الاثني عشر التي قدر لمدينته أن تنهار بعدها، وهذه النبوءة التي لم يأبه لها الناس في عصر الإزدهار والرخاء؛ بعث فيهم المخاوف الكئيبة عندما أوشك آخر هذه القرون أن ينتهي، فتحققت هذه النبوءة بانهيار وسقوط الإمبراطورية الغربية، غير أن انهيارها هذا تنبأت به نذر أكثر وضوحًا من سرب النسور؛ وذلك أن الحكومة الرومانية تبدو في كل يوم أقل بأسًا في نظر أعدائها وأكثر ظلمًا وبعثًا للكراهية في نظر رعاياها، فالضرائب كانت تتضاعف مع تفاقم المحنة العامة، وكلما زادت الضرورة إلى الاقتصاد زاد الإسراف، وطرح الأغنياء الظالمون كل العبء على كواهل الناس التي صادرت الحكومة أموالهم وتم تعذيبهم، كل ذلك الظلم جعل شعوب الإمبراطورية يفضلون طغيان الوندال ودعم ثورتهم ضد الوجود الروماني، والذي أسقط بدوره

الإمبراطورية الرومانية الغربية عام ٤٢٩ م، والتي شملت روما وولاياتها غربي المتوسط. وهذا ما سنتناوله بالتفصيل في البحث.

**الكلمات المفتاحية**:

وباء، جستنيان، الإمبراطورية الرومانية، رومولوس، شيشرون، فارو، انهيار الإمبراطورية الغربية.

# Plague of Justinian and the fate of the Roman Empire (541- 750 A.D).

**Abobakr Hosny Essa Ahmed Sarhan**
**Department of History, College of African Studies, Cairo University**
**Email: Abobakr.sarhan@cu.edu.eg**

## Abstract:

**It seems that Rome is also punished by natural destinies, represented by epidemics and diseases, the most important of which is the most lethal and strongest and most important to study of which is the plague of Gustian, which began in 431 A.D. And its impact extended to 750 A.D. Which led to the disintegration of the pillars and states of the Roman Empire, so it was in the opinion of Cicero (Marcus Tullius Cicero) (106-43 B.C) and Varro (Marcus Terentius Varro) (116-27 B.C) that the twelve that eagles that Romulus the Founder of Rome; saw it represents the twelve centuries after which his city was destined to collapse, and this prophecy that people did not pay attention to it in the era of prosperity and He made them strongly afraid when the last of these centuries was about to end, and this prophecy was fulfilled with the collapse and fall of the Western Empire, but its collapse predicted by a more clear warning than the swarm of eagles; This is because the Romanian government seems every day weaker in the eyes of its enemies and more unjust and making her citizen hate it more and more as taxes were multiplied with the aggravation of public distress, and the greater the necessity for the economy, the greater the waste, and the rich people and oppressive put all the burden on the shoulders of the people, that the government confiscated their money and were tormented. All that injustice made the**

**peoples of the empire prefer the despotism of the Vandals and supported their revolution against the Roman presence, which in turn brought down the Western Roman Empire in 429 A.D, which included Rome and its states in the western Mediterranean. This is what we will deal with in detail in the research.**

## Key words:

**Pandemic, Justinian, Roman Empire, Romulus, Cicero, Varro, Collapse, Western Empire, Eagles, Taxes, Public Tribulation, Economy, Rich, People, Vandals, Revolution, States, Western Mediterranean.**

## مقدمة:

مرت روما بثلاث فترات تاريخية:

١- الـمـلـكـيـة (٧٥٣- ٥٠٩ ق.م.).
٢- الجمهورية (٥٠٩- ٢٧ ق.م.).
٣- الإمبراطورية ( ٢٧ق.م.-١٤٥٣م.).

أ- سقوط الإمبراطورية الرومانية الغربية بروما ٤٢٩م.
ب- سـقوط الإمبراطوريـة الرومانيـة (البيزنطيـة) الشـرقية بالقسـطنطينة عـام ١٤٥٣م.

كانت لكل فترة سماتها التاريخية ففي منتصف فترة الجمهورية بدأت روما تتطلع لبسط نفوذها خارج إيطاليا، ومن ثم تحتك بالقوي الخارجية الإغريقية والقرطاجية، مما أكسب روما الحنكة السياسة والتنظيم العسكري وبناء هيئة دفاع وهجوم قوية، وكان آخر حروبها مع قرطاجة( تونس) والمعروفة بالحروب البونية (٢٦٣- ١٤٦ق.م.)، واستطاعت روما أن تبسط نفوذها شيئًا فشيئًا حتى إنها استطاعت نهاية فترة الحكم الجمهوري أن تبسط نفوذها على كامل البحر المتوسط شمالًا وجنوبًا وشرقا وغربًا.

تعاقب العديد من الأسر الحاكمة على حكم روما فترة الإمبراطورية الرومانية ودارت العديد من الصراعات الداخلية والخارجية، واجهت روما خلالها العديد من التحديات وخاصة التحديات الطبيعية؛ والتي نحن بصدد الحديث عن واحدة منها وهي انتشار الأوبئة والأمراض في الولايات الرومانية، وأسباب وتداعيات ذلك وما اتخذه الرومان من إجراءات سياسية كانت لها خطورتها، وسببًا في تخلخل أركان

روما وحكمها المستبد مما جعل الأويئة أحد الصخور التي تحطمت عليها قوة وكيان روما وولاياتها.

ولكن قبل أن نتناول موضوع البحث فلابد من إلقاء فكرة عامة عن نظام الحكم الإمبراطوري وكما وضعه الإمبراطور أوغسطس(جايوس أكتافيوس Augustus (٦٣ ق.م.- ١٤م.) مؤسس النظام الإمبراطوري؛ واحتفظ به من جاء من بعده من الأباطرة الذين أدركوا مصالحهم الخاصة وأن مصالح الشعب ملكية متسترة وراء أنظمة تعمل لصلح الأباطرة وأعوانهم من أعضاء المجالس وخاصة مجلس السناتو، فقد أنتهك أولئك الطغاة حرمة كل القوانين الوضعية والطبيعية، فتظاهروا بأنهم يشاطرون رعاياهم في كل ما يهمهم من أمور الحياة، أما أتباع الإمبراطور فقد بلغ عددهم وفرة؛ متمثلة في العبيد والمعتقين، والتي جعلت أوغسطس وتراجان Traianus (٥٣- ١١٧م.) يخجلا من استخدام أقل الرومان شأنًا في مثل هذه الوظائف الحقيرة التي يتلمسها أكثر نبلاء الولايات في حاشية ملك صغير.

أضف إلى ذلك تقديس الأباطرة إلى حد العبادة؛ فقد كان الأباطرة الرومان والحكام يُعبدون في الولايات بصفتهم ألهة محليين بكل ما تقتضيه العبادة من أبهة المظهر والمذابح وتشييد المعابد والاحتفال بالأعياد وتقديم القرابين، مما جعل الحكام والولاة في الولايات يتحولون إلى أفاقين ومتملقين ومرائين، وجعل الأباطرة يُنصبون أنفسهم ألهة أوصياء على روما وولاياتها واستعباد شعوبها، وقتل أو نفي من خالفهم الرأي والمعتقد، وبسبب ذلك أنتشرت الخرافات والأباطيل، وجعل الأباطرة فيما بعد لعبة في يد قواد جيوشها وأنهم صنع أرداتها وأدوات لسلطانها والدليل على ذلك السقوط السريع للأباطرة "جالبا" Servius Sulpicius Galba (٣ق.م.- ٦٩م.) والذي حكم سبعة أشهر فقط، وأنقلب عليه الإمبراطور "أثو" Otho (٣٢-٦٩م.) والذي استمر حكمه ثلاثة أشهر فقط بعد أن تم اغتياله على يد الإمبراطور "أوليوس

فيتليوس" Aulus Vitellus (١٥- ٦٩م.) والذي حكم لمدة ثمانية أشهر وتم إعدامه في روما على يد جنود "فسباسيان" في ٢٢ ديسمبر عام ٦٩م، وكان فسباسيان (٩-٧٩م.) من أصل وضيع حيث كان جده جنديًا خاصًا، وأبوه محصل ضرائب، رفعه تملقه والرشوة لقادة الجند لمنصب الإمبراطور وتحكمت الجنود في أراءه فيما بعد.

وبذلك خضعت الإدارة الرومانية في اختيار حكامها للأهواء والشذوذ الفكري مثلما تم مع هادريان(٧٦- ١٣٨م.) عندما اختار خلفه "أورليوس فيروس" Orelius Verus(١٣٠- ١٦٩م.)، وهو شخص داعر من طبقة الأشراف أوصى به ساحر لدى الإمبراطور "هادريان"، وترتب على هذا الاختيار أن أدار إمبراطوريته بتهليل الجنود ممن حصل على موافقتهم بما أغدق عليهم من هبات ضخمة.

هذه نظرة سريعة عن وضع الإمبراطورية ونظام حكمها ورعاياها وكيف كانت الشعوب تغتنم ولو إشارة بسيطة للتحرر من هذا الطغيان خاصة في الولايات التي عاشت شعوبها بإذلال وهوان.

وسنتناول في هذا البحث إحدى هذه الأوبئة والأمراض التي أضعفت الإمبراطورية الرومانية؛ واستغلت الشعوب المقهورة شرارتها لتحرير نفسها وتحديد مصير الإمبراطورية الرومانية وولاياتها.

# طاعون جستنيان

## (٥٤١- ٧٥٠ م.)

يبدو أن روما تعاقبها الأقدار الطبيعية أيضًا بسبب تخلخل أركانها خاصة في الإمبراطورية الغربية وولاياتها في شمال أفريقيا، فكان من رأي عرافي الرومان منذ وقت بعيد يعود إلى أيام شيشرون (Marcus Tullius Cicero) [1] (١٠٦- ٤٣ ق.م.) وفارو (Marcus Terentius Varro) (١١٦- ٢٧ق.م.) أن النسور الاثنى عشر التي رأها "روميولوس"( مؤسس روما، حسب أسطورة الشاعر

(١) ماركوس توليوس سيسرو (شيشرون) (١٠٦- ٤٣ ق.م.)، الكاتب الروماني وخطيب روما المميز، وكان محاميا وقنصل وعضو مجلس السناتو الروماني، ينتمي إلى أسرة من طبقة الفرسان وتأثر بآراء أفلاطون وأرسطو، وحاوا اتباع أفلاطون في تخيله للمدينة الفاضلة يسود بها نظام الملكية الجمعية العامة، له العديد من المؤلفات التي تعد نموذجًا مرجعيًا للتعبير اللاتينى الكلاسيكي وصلنا لحسن الحظ العديد من مؤلفاته؛ وأهمها: كتاب "الجمهورية"، و"في القوانين"، و "الخطب والقوانين"، و"الواجب" و"الرسائل" أثارت شخصية شيشرون العديد من الجدل والتقويمات المتضاربة خاصة في الجانب السياسي من حياته، فهو تارة مثقف وضع في وسط سيئ، وتارة أخرى ثري إيطالي صاعد في روما، وثالثة انتهازي متقلب وأداة لينة في يد الحكام، انحاز ليوليوس قيصر مؤسس الإمبراطوربي الرومانية وواضع لبناتها الأولى والذي تم اغتياله في مجلس السناتو عام ٤٣ق.م. ومن بعده اغتيل شيشرون في نفس العام ٧ ديسمبر ٤٣ق.م.

-Cicero: The letters to his Family(Epistulae ad Familiares), Translated by: Williams, W.G.,edited by: Page,T.E.and Others,(L.C.L.), Harvard University Press, London, 1943.

- --------: De Lege Agraria, Translated by: Freese, J.H.,(L.C.L.), London,1956.

Caesar: (Alexandrian, African and Spanish Wars) the African war (De Bello Africo), Translated by: Way, A.G., edited by: Page,T.E. and Others,(L.C.L),Harvard University Press, London, 1955, XX.2.P.213.

الروماني فرجيليوس(٧٠- ١٩ ق.م.)[١] إنما تمثل القرون الاثنى عشر التي قدر لمدينته أن تنهار بعدها، وهذه النبوءة التي لم يأبه لها الناس في عصر الازدهار

(١) لم تكن عملية تكوين الدولة الرومانية بالعملية السهلة بل مرت بعدة خطوات وصعاب محلية ودولية؛ نشأت مدينة روماعلى مسافة أربعة وعشرين كيلو متراً من مصب نهر (التيبر Tiberi) في منطقة يكوّن فيها مجري نهر التيبر ثنيتين تؤلفان شكلاً يقارب حرف(S) عام ٧٥٣ق.م.، وتحيط بروما مجموعة من التلال تقع علي جانبي نهر التيبر، ويتراوح ارتفاعها عن مستوي سطح البحر بين ٦٠و٩٠ متراً، ويقع علي الضفة اليمني أو الغربية لنهر التيبر تلان هما: تل (يانيقوس Janiculus) في الجنوب، وتل ("فاتيقانوس Vaticanus) في الشمال. وتقع علي الضفة اليسري أو الشرقية لنهر التيبر سبعة تلال منفصلة عن بعضها البعض في صفين شبه مقوسين، وهذه التلال من الشمال إلي الجنوب؛ تلال (قابيتولينوس Capitolinus)، و(بالاتينوس" Palatinus)، و(أفنتينوس" Aventinus)، و(كويرينياليس" Quirinalis)، و(فيمينياليس Viminalis)، و(أسكويلينوس" Esquilinus)، و(قايليوس" Caelius)، وكانت روما تسمي مدينة التلال السبعة، وبفضل موقع روما تمتعت بمزايا طبيعية أسهمت في بناء مجدها، فقد حتم الموقع الجغرافي الممتاز لتلك المدينة تقلد الزعامة السياسية، ارتبط بتأسيسها بعض الأساطير وخاصة الأسطورة المنسوبة إلى لشاعر الروماني "فرجليوس" والتي كتبها في بداية عصر الإمبراطورية؛ في مؤلفه الشهير (الإنيادة) على غرار (الإلياذة والأوديسا) ل"هيميروس" الشاعر الإغريقي.

أبوبكر سرحان: مجتمع شمال أفريقيا تحت الاحتلال الروماني (٢٧ ق.م.- ٢٣٥م.)، ، دار نشر نور، ألمانيا.٢٠١٩،ص.ص. ٣٥، ٣٦.Noor Publishing ISBN:978-620-0-06640-4( 27-7-2019)

https://www.morebooks.de

https://www.noor-publishing.com

https://www.amazon.co.uk/Book-Search-Books/b?ie=UTF8&node=12555201

والرخاء؛ بعث فيهم المخاوف الكثيبة عندما أوشك أخر هذه القرون أن ينتهي وسط مظاهر العار والشقاء، فتحققت هذه النبوءة بانهيار وسقوط الإمبراطورية الغربية[١]، غير أن انهيارها هذا تنبئ به نذر أكثر وضوحًا من سرب النسور؛ وذلك بأن الحكومة الرومانية تبدو في كل يوم أقل بأسًا في نظر أعدائها وأكثر ظلمًا وبعثًا للكراهية في نظر رعاياها، فالضرائب كانت تتضاعف مع تفاقم المحنة العامة، وكلما زادت الضرورة إلى الاقتصاد زاد الإسراف وطرح الأغنياء الظالمون كل العبء على كواهل الناس، التي صادرت الحكومة أموالهم وتم تعذيبهم، كل ذلك الظلم جعل شعوب الإمبراطورية يفضلون طغيان الوندال (البرابرة) ودعم ثورتهم ضد الوجود الروماني والذي أسقط بدوره الإمبراطورية الرومانية الغربية عام ٤٢٩م، والتي شملت روما وولاياتها في غرب المتوسط والتي شملت ولاياتها في غرب أوروبا وغرب أفريقيا. [٢].

(1) Law,R.C.C.: North Africa in the Hellenistic and Roman Periods, 323B. C. to A.D.305, (the Cambridge History of Africa ) Vol. 2, from 500B. C. to A. 1050, edited by Fage, J.D. First published, London, 1978.p.215.

(٢) إدوارد جيبون: اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها، الجزء الثاني، ترجمة: محمد سليم سالم، الطبعة الثانية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٧م، ص. ص.١٩٨، ١٩٩.

الوندال أو الفندال هم إحدى القبائل الجرمانية الشرقية، اقتطعوا الجزء الغربي من الإمبراطورية الرومانية في القرن الخامس الميلادي وأسسوا لهم دولة في شمال أفريقيا مركزها مدينة قرطاجة وضموا إليها جزيرة صقلية والعديد من الجزر في البحر المتوسط، حيث سقطت روما في أيديهم كاملة عام ٤٥٥م.= =

حاول أباطرة روما الشرقية (القسطنطينية) استرجاع روما الغربية وولاياتها من أيدي الونال وحلفائهم؛ ولكن باءت محاولاتهم بالفشل لقوة الوندال وحلفائهم من جانب ولسوء حظ الرومان من جانب آخر وهو ظهور وباء أو طاعون جستنيان الأول Flavius Petrus Sabbatius Justinianus I ( ٤٨٢- ٥٦٥م.) – حيث أصاب الوباء الإمبراطورية البيزنطية الرومانية الشرقية وعاصمتها القسطنطينية[1]، عام ٥٤١ إلى ٥٤٢ م. وتكرر حتى عام ٧٥٠م. وكذلك الإمبراطورية الساسانية والمدن الساحلية حول البحر الأبيض المتوسط بأكمله- حيث كانت السفن التجارية تؤوي الفئران التي تحمل البراغيث

= There is not enough evidence satisfactorily to identify the disease or diseases" concluded J. F. Gilliam in his summary (1961) of the written sources, with inconclusive Greek and Latin inscriptions, two groups of papyri and coinage.p.264.

(١) إدوارد جيبون: اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها، الجزء الثاني، ص. ص.١٩٨، ١٩٩.
ولد الإمبراطور "جستنيان الأول" بالقرب من أطلال ساراديكا (مدينة صوفيا الحديثة) من نسل وضيع مغمور من المتبربرين الذين يقطنون رقعة أرض منعزلة أطلق عليها اسم "داردانيا" ثم "داكيا" ثم "بلغاريا"، وقد دبر أمر اعتلائه العرش عمه "جوستين" الذي اتسم بروح المغامرة، والذي هاجر مع اثنين من الفلاحين من قريته هربًا من الفلاحة بغية العمل في الجندية، وخرج هؤلاء الشبان الثلاثة-جوستين ورفيقاه- ومعهم قدر يسير من الزاد سيرًا على الأقدام قاصدين القسطنطينية وسرعان ما انخرطوا في حرس الإمبراطور "ليو الأول" I Leo (٤٠١- ٤٧٤م.) بفضل قوتهم وقوامهم، وتعاقب على "جوستين" عهدان أصاب فيهما ثروة ومجدًا، وتدرج في المناصب العسكرية حتى وصل إلى رتبة "كونت" ثم رتبة "قائد" ثم حظي بعضوية السناتو، ثم تولى قيادة الحرس الذين امتثلوا لأمره وشيئًا فشيئًا ارتقى "جوستين" عرش الإمبراطورية وهو في سن الثامنة والستين، ومن بعدها ولى الإمبراطور الهرم ابن أخيه "جستنيان" عرش الإمبراطورية وهو في التاسعة والأربعين من عمره عام ٥٢٧م.
إدوارد جيبون: اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها، الجزء الثاني، ص. ص.٢٦٥- ٢٦٩.

المصابة بالطاعون، حيث يعتقد بعض المؤرخين أن طاعون جستنيان كان أحد أكثر الأوبئة فتكًا في التاريخ، وأنه أدى إلى وفاة ما يقدر بنحو ٢٥-٥٠ مليون شخص خلال قرنين، وهو ما يعادل ١٣-٢٦% من سكان العالم في وقت تفشي المرض لأول مرة، وتكرر ظهور الطاعون بشكل دوري حتى القرن الثامن الميلادي كان لموجات المرض تأثير كبير على المسار اللاحق للتاريخ الأوروبي، أطلق المؤرخون المعاصرون على هذا الوباء اسم جستنيان الأول، الذي كان إمبراطورًا في وقت تفشي المرض لأول مرة، حيث أصيب جستنيان نفسه بالمرض، لكنه نجا[1].

استنزف هذا المرض سكان الأرض في عهد جستنيان وخلفائه، فقد أبلغ المؤرخ البيزنطي"بروكبيوس" أول مرة عن الوباء عام ٥٤١ م. القادم من ميناء مدينة بيلوزيوم (هي منطقة الفرما الأثرية الحالية بمحافظة شمال سيناء وتقع شرق قناة السويس بحوالي ٣٥ كم.)، ومن هناك سار في اتجاهين؛ فانتشر صوب الشرق في سوريا وفارس وجزر الهند، واتجه صوب الغرب على طول ساحل أفريقيا ثم إلى قارة أوروبا، وفي ربيع السنة التالية انتشر الوباء في مدينة القسطنطينية خلال ثلاثة أو أربعة شهور، وتفشي المرض في القسطنطينية بسبب الفئران المصابة القادمة في سفن الحبوب من مصر إلى المدين،. حيث كانت توجد مخازن الغلال المخصصة لإطعام مواطني القسطنطينية وما حولها من مدن خاضعة للرومان، استوردت المدينة والمجتمعات المجاورة كميات كبيرة من الحبوب معظمها من مصر التي كانت بها العديد من مخازن القموح الخاضعة للسيطرة الرومانية، حيث حوت هذه المخازن العديد من الفئران والبراغيث التي كانت سببًا في نقل

(1) Procopius: Histoire de la Guerre Des Vandales,Trad. Par: Durean de la Malle,Paris,1852.p.234.

العدوى في ربوع ولايات الإمبراطورية الرومانية الشرقية وكل من كان يتعامل معها من البلدان الأخرى[١].

راقب المؤرخ "بروكوبيوس" Procopius (٥٠٠- ٥٧٠م.) ببصيرة الطبيب سير الوباء وأعراضه،- منافسًا المؤرخ الإغريقي "ثيوكيديدس" (٤٦٠- ٣٩٥ق.م.) واجتهاده في وصف طاعون أثينا عام ٤٣٠ ق.م.-، وكان النذير بالعدوى في بعض الأحيان هو تلك الأطياف التي يراها خيال المعتل، وسرعان ما ينتاب الضحية اليأس بمجرد أن يسمع وعيد الشبح الخفي وتشعر بوطأة ضرباته، غير أن أكثرية الناس سواء كانوا في فراشهم أو في الطرقات أو في أعمالهم العادية؛ كانوا يفاجئون بحمى خفيفة لا يصاحبها أي تغير في النبض أو في اللون مما يعتبر علامة على اقتراب الخطر، وفي نفس اليوم أو في اليوم الثاني أو في اليوم الذي يليه يتمثل المرض في تورم الغدد وخاصة غدد الفخذ، وتحت الأبط، وتحت الأذن، وكانت عندما تفتح هذه الأورام يوجد بها مادة سوداء في حجم حبة العدس تسمى فحمًا (Coai) فاذا انفتحت هذه الأورام وتقيحت كما ينبغي، أُنقذ المريض بفضل هذا هذا النوع من الإفراز الطبيعي للصديد الوبيل، ولكن إذا ظلت صلبة وجافة أصيب المريض بتسمم سريع وانتهت حياته عادة في اليوم الخامس[٢].

وكثيرا ما كانت أجسام المرضى تغطى بالبثور والدمامل السوداء، وهي أعراض الموت المباشر، وفي حالة الأجسام الضعيفة التي لا تستطيع تفجير الأورام؛ كان المريض يصاب بقيء دموي يتبعه تسمم الأمعاء، وكان الطاعون بوجه عام مميتًا

(1) Procopius: Op.Cit.,1852.p.238.

(٢) بروكوبيوس: التاريخ السري، القرن السادس الميلادي، جانب من جوانب حياة الإمبراطور جيستنيان وزوجته تيودورا وقائده المغوار بليزاريوس وزوجته أنطونينا صورة سيئة، ترجمة: صبري أبوالخير سليم، الطبعة الأولى ، ٢٠٠١، ص ٢٣٣-٢٣٩.

للحوامل ومع ذلك تم استخراج بعض الأجنة أحياء من بطون أمهاتهم بعد موتهن، وكان سن الشباب هو أخطر وقت يصاب به الإنسان بهذا المرض، كما أن الإناث كن أقل قابلية للإصابة من الذكور، غير أن المرض هاجم الناس دون تمييز وكان له ضحاياه من كل مرتبة ومن كل مهنة، وكثير ممن نجوا من هذا المرض فقدوا القدرة على الكلام دون أن يأمنوا عودة المرض، وبالرغم من مهارة الأطباء خاصة في القسطنطينية إلا أن المرض تعددت أعراضه؛ والدواء لم يفلح مع الجميع وأعطى نتائج متناقضة، والنتيجة المتقلبة أعجزتهم من التنبؤ بموت المريض أو بقائه حيًا[١].

اختل في ذلك الوقت نظام الدفن وحق الأموات في قبورهم، فأولئك الذين تركوا بدون خدم أو أصدقاء ظلت جثثهم ملقاة في الطرقات، أو في منازلهم المقفرة المهجورة، وخول أحد الحكام جمع أكوام الجثث المختلطة ونقلها برًا أو بحرًا، ثم موارتها في حفر عميقة بعيدًا عن حدود المدينة، وأحس أقسى الناس قلوبًا وأكثرهم رذيلة بالخطر المحدق بهم، والمحنة العامة التي تنتظرهم، فأيقظ ذلك كله بعض الندم في نفوسهم، حتى إذا ما رجعت إليهم الثقة بالصحة؛ عادوا إلى أهوائهم وعاداتهم، ولعل المؤلف يقصد بذلك الإمبراطور جستنيان بعد أن شفي من المرض[٢].

والعدوى هي العرض الملازم لوباء الطاعون، وينتقل عن طريق التنفس من الشخص المصاب إلى رئتي من يقترب منه إلى معدته، ومع أن الفلاسفة والمؤرخين

(1) Barker,Social and Political Thought in Byzantium, Oxford, 1957,p.234.

(٢) شارل أومان: الإمبراطورية البزنطية، ترجمة: مصطفى طه بدر، دار الفكر العربي، ١٩٥٣، ص ١٢٢.

-لسان هذا العصر- يعلمون خطر المرض وسرعة انتشار العدوى ويرتعدون خوفًا، إلا أنه من العجيب أن وجود هذا الخطر الحقيقي كأنه ينكره هؤلاء ولايحذرون الشعب للاحتراز منه، بل يميل أكثر ما يكون الميل إلى توهم أهوال باطلة وخيالية، غير أن متبعي المؤرخ "بروكوبيوس" قد اقتنعوا نتيجة تجربة قصيرة جزئية بأن العدوى لا يمكن أن تنتقل بالمخالطة مهما كانت قريبة، وهذا الاقتناع كان الغرض منه دعم عزيمة الأصدقاء والأطباء في مثابرتهم والعناية بالمرضى، الذين كان الحرص القاسي يقضي عليهم بالعزلة واليأس، غير أن هذا الإطمئنان القاتل ساعد على انتشار العدوى [1].

كما أن هذه الاحتياطات الطبية التي يرجع الفضل فيها إلى نجاة غرب أوربا - الإمبراطورية الرومانية الغربية والتي تحررت من السيطرة الرومانية عام ٤٢٩م.- لم تكن معروفة لدى حكومة الإمبراطور "جستنيان"، التي لم توضع أية قيود على حرية انتقال الكثير بين الشعوب في الولايات الرومانية، وبين بلاد فارس؛ فقد كان هناك اختلاط بين الشعوب عن طريق الحرب تارة والهجرات والتجارة تارة أخرى، فسرت بينهم العدوى وقتلت العديد منهم، حيث كانت الرائحة الوبائية تكمن عدة سنوات في الأماكن المغلقة خاصة التي تنتقل من مكان لأخر مثل بالة القطن التي تنتقل عن طريق التجارة إلى أبعد المناطق، وقد وضح المؤرخ "بروكوبيوس" الشاهد على هذا الوباء والمؤرخ لأحداثه؛ طريقة انتشار العدوى في ملاحظة ابداها، حيث قال: إنها (كانت تنتشر دائمًا من شاطئ البحر إلى الأقاليم الداخلية، وأصيبت بالوباء تباعًا أكثر الجزر والجبال عزلة، كما أن الأماكن التي نجت من حدة الوباء

(1) Whitham, M.A, The History of the Christian Church to the Separation of the East and West, 4th edition, London 1931,P.312.

في دورته الأولى كانت هي وحدها التي أصيبت بالعدوى في السنة التالية، وربما ساعدت الرياح على نشر هذا السم الخفي، ولكن إن لم يكن الجو مهيأ لأستقباله فأنه سرعان ما كان يتلاشى في الأجواء الباردة أو المعتدلة، وقد تلوث الهواء إلى درجة ان الوباء الذي حدث في السنة الخامسة عشر من حكم الإمبراطور "جستنيان" لم يتوقف أو يخف نتيجة اختلاف في فصول السنة لحداثة الوباء وقوته) [١].

وبمرور الزمن تحور الوباء وخفت وطأته وحدته الأولى؛ وأخذ المرض يتراخى مرة وينشط مرة أخرى، غير أن الناس لم يستردوا صحتهم والهواء لم يعد إلى سابق نقائه وطيبه إلا بعد مرور فترة موبوءة قدرها اثنان وخمسون عامًا[٢].

يعتبر طاعون جستنيان عمومًا أول وباء طاعوني يسجل تاريخًا يستند عليه في التأريخ للأوبئة قديمًا، فقط استند هذا الاستنتاج إلى الأوصاف التاريخية للأعراض السريرية للمرض والكشف عن الحمض النووي لـ Y. pestis في البقايا البشرية في مواقع المقابر الجماعية القديمة التي يرجع تاريخها إلى فترة انتشار وباء "جستنيان"، وفقًا لمصادر أثرية وأدبية معاصرة لتلك الفترة[٣].

بجانب ما ذكره المؤرخ "بروكبيوس" يوجد تقريران آخران عن ويلات الطاعون كتبهما مؤرخ الكنيسة السريانية "يوحنا الأفسسي و"إيفاغريوس سكولاستيكوس"

(١) بروكوبيوس: التاريخ السري، المصدر السابق، ص ٢٣٤.

(٢) محروس عبدالقدوس سعيد: جوستنيان وسياسة الاسترداد، رسالة ماجستير غير منشورة بكلية الآداب جامعة الزقازيق، ١٩٨٧، ص ٢٤٥.

(٣) محمد فتحي الشاعر: السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية في عصر الإمبراطور جوستنيان، دار المعارف، القاهرة،١٩٩٢م، ص٢١٣.

الذي كان طفلاً في أنطاكية في ذلك الوقت وأصبح لاحقًا مؤرخًا للكنيسة، حيث أصيب "إيفاغريوس" بالتهاب الغدة الليمفاوية المرتبط بالمرض لكنه شفي منه؛ وتكررت إصابته بالمرض أربع مرات في حياته، فقد ماتت زوجته وابنته وطفلها وأطفال آخرين ومعظم خدمه بسبب الوباء(١).

سجل "بروكوبيوس" أن الطاعون في ذروته كان يقتل خمسة آلاف شخص في القسطنطينية يوميًا، ثم ارتفع سريعًا إلى عشرة آلاف، ولكن دقة الرقم محل شك، وربما لن يعرف الرقم الحقيقي أبدًا، حيث لا توجد إشارات في مصادر أخرى أن الوباء قتل أكثر من هذا العدد الذي ذكره "بيروكوبيوس" نظرا لكثافة السكان في القسطنطينية وولاياتها وتفشي المرض وعدم السيطرة عليه. وأشار أيضا "بيروكوبيوس" إلى أنه بسبب عدم وجود مكان لدفن الموتى، تُركت الجثث مكدسة في العراء، وغالبًا ما كانت تُترك طقوس الجنازة دون حضور، وكانت رائحة المدينة بأكملها مثل رائحة الموتى، فقد سجل في كتابه التاريخ السري، -أفضل وأدق ما كتب عن هذا الوباء- أن الدمار أصاب مجتمع المدن الريفي بلا رحمة، ويتحدث عن الرد القاسي من قبل الإمبراطور "جستنيان" فيقول: (عندما اجتاح الوباء العالم المعروف كله ولا سيما الإمبراطورية الرومانية، قضى على معظم المجتمع خاصة المجتمع الزراعي تاركًا دربًا من الخراب في أعقابه، فلم يُظهر "جستنيان" أي رحمة تجاه أصحاب الأملاك المدمرة، حتى في ذلك الحين لم يمتنع عن المطالبة بالضريبة السنوية، ليس فقط المبلغ الذي قام بتقييمه لكل فرد من الأحياء، ولكن أيضًا المبلغ المستحق على المتوفي حيث كان أهل المتوفي أو جيرانه يدفعون عنه)(٢).

(1) Whitham, M.A, Op.Cit.,P.312.

(2) Procopius: Op.Cit.p.123.

كان من نتائج الطاعون في الريف؛ أنه لم يستطع المزارعون الاعتناء بالمحاصيل وارتفع سعر الحبوب في القسطنطينية، فقد أنفق "جستنيان" مبالغ ضخمة من المال للحروب ضد الوندال في منطقة قرطاج ومملكة القوط الشرقيين في إيطاليا، وخصص أموالًا كبيرة لبناء كنائس عظيمة، مثل"أيا صوفيا"، وعندما حاولت الإمبراطورية تمويل المشاريع تسبب الطاعون في انخفاض عائدات الضرائب من خلال العدد الهائل من الوفيات وتعطيل الزراعة والتجارة، سارع "جستنيان" بسن تشريع جديد للتعامل بشكل أكثر كفاءة مع وفرة دعاوى الميراث التي يتم رفعها نتيجة وفاة الضحايا دون وصية(١).

كانت آثار الطاعون على المدى الطويل على التاريخ الأوروبي والمسيحي هائلة، مع انتشار المرض إلى المدن الساحلية حول البحر الأبيض المتوسط، حيث ساعد على إعادة تنشيط "القوط " المتعثرين ودخل صراعهم مع القسطنطينية مرحلة جديدة، زاد فيها ضعف وتقلص دور الإمبراطورية الرومانية الشرقية(٢).

---

(1) Barker : Op.Cit. ,p.212.

(٢) القوط الشرقيون هم قبائل جرمانية شرقية تنحدر من سكندنافيا، وفي القرن الأول الميلادي هاجرت القوط جنوبًا إلى منطقة فيستولا في بولندا؛ ثم استقروا في مناطق سكينيا(كرواتيا) التي أطلقوا عليها اسم "أيم" (Oium) أي مدينة الماء، وفي القرن الثاني الميلادي اتخذوا من مدينة "آرهايمار" (Arheimar) –وتعني موطن النهر– عاصمة لمملكتهم الناشئة، وقد انضم للقوط العديد من القبائل الرعوية المقاتلة، وكان للقوط هيبة ورهبة بين القبائل ربما بسبب أنهم كانوا يضحون بأسرى المعارك كأضاحي لإلههم"تايز" وفي القرن الرابع اعتنق القوط المسيحية واتخذوا الآريوسية مذهبًا لهم– وهو مذهب يختلف مع مذهب الإمبراطورية الرومانية التي تبنت الكاثوليكية– وفي القرن الثالث انقسم القوط إلى قسمين: القوط الشرقيون (Ostrogoth) والقوط الغربيون (Visigoth).

محمد فتحي الشاعر: السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية في عصر الإمبراطور جوستنيان، مرجع سابق، ص١٤٥.

أضعف الطاعون الإمبراطورية البيزنطية في لحظة حرجة، فقط ضرب هذا الوباء القسطنطينية عندما استعادت جيوش الإمبراطور"جستنيان" تقريبًا كل إيطاليا وساحل غرب البحر الأبيض المتوسط، فقد كان الغزو المتطور سيعيد توحيد قلب الإمبراطورية الرومانية الغربية مع الإمبراطورية الرومانية الشرقية على الرغم من أن الغزو حدث في ٥٥٤م. إلا أن التوحيد لم يدم طويلًا؛ ففي عام ٥٦٨م.، غزا اللومبارديون شمال إيطاليا، وهزموا الجيش البيزنطي الصغير الذي كان قد ترك هناك وأقاموا مملكة "لومبارديا"[١]، وربما يكون الطاعون قد ساهم أيضًا في نجاح العرب بعد بضعة أجيال في الحروب العربية البيزنطية[٢].

(١) الأنكبردة أو اللومبارديون (Langobardi) هي قبيلة جرمانية من إسكندنافيا والتي حكمت إيطاليا ما بين عامي ٥٦٨- ٧٧٤م.
محروس عبدالقدوس سعيد: جوستنيان و سياسة الاسترداد، ص. ٨٧-٩٩.

(٢) هسي،ج.م.: العالم البيزنطي، ترجمة: رأفت عبدالحميد، الطبعة الثانية، دار عين للدراسات، القاهرة، ١٩٩٧م. ص ١٥٤.

## الـــخـــاتـــمـــة

هكذا شكلت الأوبئة اللحظات الفارقة في تاريخ المجتمعات، وعصر تحول وانتقال من حقبة زمنية إلى أخرى، حيث قال "لوران هنري فينيو": (انتشار الأوبئة يحمل دوما امتحانا للمجتمع وحقبه)، ومن النظر والرصد لتاريخ البشرية يتبين أن الأوبئة كانت سببًا عظيمًا في نهاية عصر وبداية عصر آخر، وخير دليل على ذلك طاعون جستنيان؛ كيف استطاع أن يجتاح الإمبراطورية الرومانية الشرقية وولاياتها مترامية الأطراف وينتشر في جميع ربوعها، مشكلا نقطة تحول تاريخي كبرى.

وبرصد وباء جستنيان من خلال الكتابات القديمة والمكتشفات الحديثة نري ولو على المدى البعيد أن هذا الوباء أسفر عن عدة نتائج هامة ومفصلية في تاريخ الإمبراطورية الرومانية الشرقية(البيزنطية) تجعلها تنتقل من حقبة تاريخية إلى أخرى جديدة.

انهيار القدرة العسكرية الرومانية بسبب سوء الإدارة والتنظيم مما جعلها تفشل في التعامل مع الوباء والحد من انتشاره، فبسبب تنقل الجيش الغير منتظم انتقل الوباء إلى جميع الولايات وتغلغل داخل المجتمع الروماني ودمر قوته الذاتية؛ وترتب علي ذلك انتشار الفوضي مما أدي الى ضعف قوة روما الشرقية البيزنطية وفشلها في استراد ما سلب منها من قبل( روما الغربية التي استولى عليها الوندال عام ٤٢٩ م.، ومن بعدهم؛ القوط الشرقيون والغربيون واللومبارديون).

صحوة المجتمع ونبذ الديانات الوثنية وتلاشيها وتراجع مكانة المعبود الإمبراطور الذي لايملك من أمره شيئا وقتلته الأوبئة، واندثار نظام العبودية الذي رسخت له الأنظمة القديمة اليونانية والرومانية؛ وانهيار نظام الرق والعبودية الذي وضعت اليونان لبناته الأولى وعملت على تقنينه ورواجه الإمبراطورية الرومانية، حيث حطم الوباء كل قيود العبودية والأفكار الوثنية القديمة.

ساهم طاعون "جستنيان" في تحولات تاريخية زلزلت أركان الإمبراطورية الرومانية الشرقية البيزنطية وريثة الإمبراطورية الرومانية الغربية، حيث اكتسح هذا الوباء مصر والقسطنطينية وبلاد الأناضول وبلاد الشام وفارس وغيرها من البلدان؛ ونتج عن هذا الوباء أيضًا انتشار اللصوصية وقطاع الطرق وتوقفت حركة التجارة المحلية والدولية خوفًا من انتشار المرض تارة وخوفًا من عدم استتباب الأمن تارة أخرى.

كبد الوباء الإمبراطورية الرومانية البيزنطية خسائر فادحة في الأرواح والاقتصاد وجعل الدولة البيزنطية تدخل في مرحلة الضعف والانكماش الاقتصادي، فكان وباء "جستنيان" ضربة قوية قلصت من نفوذ الإمبراطورية الرومانية الشرقية (البيزنطية)، وإلى جانب ذلك حدث في عصر "جستنيان" أيضًا غير ما ذكر من أوبئة وأمراض حادثان خطيران سيئان، أولهما: تبذيره الاقتصادي، وثانيهما: عجزه من الناحيتين اللاهوتية والسياسية عن التوفيق بين الولايات الشرقية والغربية، ولكنه فشل وسقطت الولايات الرومانية في شمال وشرق المتوسط مع ظهور الإسلام وفتح المسلمين لبلاد الشام ومصر عام (٦٣٤-٦٤١م.) وبداية ميلاد حقبة تاريخية حضارية إسلامية ورثت مجد البيزنطيين فيما تبقى من ولايات شمال أفريقيا وشرق المتوسط، وعلى رأسها أهم ولاياتهم في شمال أفريقيا وهي ولاية مصر الرومانية.

## الملاحق:

سقوط الإمبراطورية الرومانية الغربية عام ٤٢٩م.

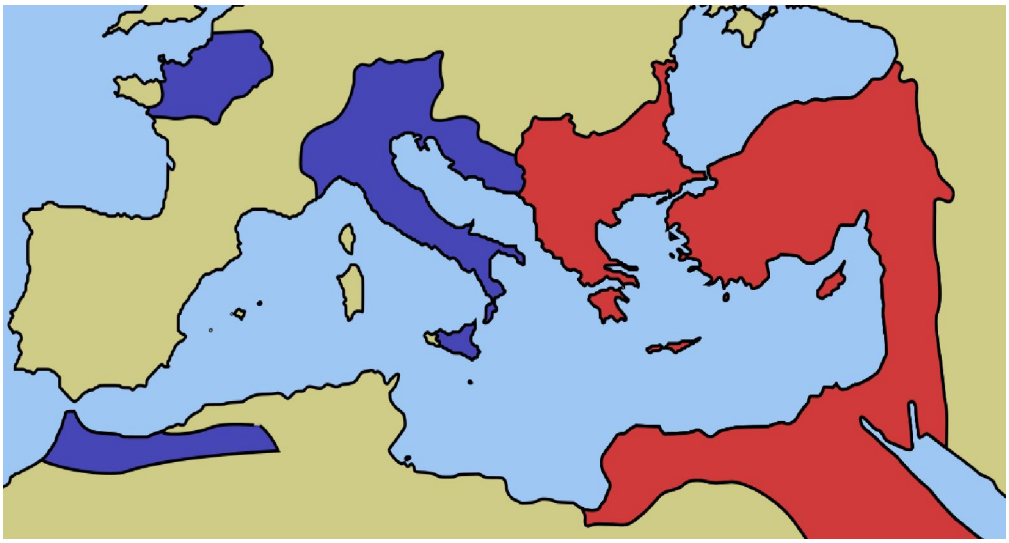

الطاعون الذي أطاح بالإمبراطورية البيزنطية(روما الشرقية) تحت حكم جستنيان

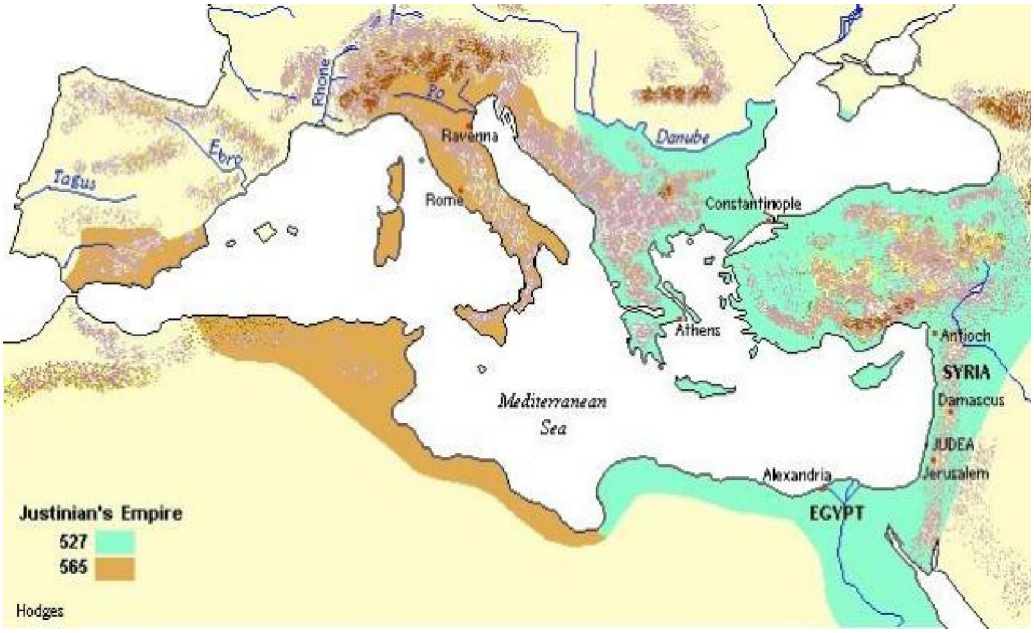

**بعض المناظر من طاعون جستنيان كما صورها فنانوا ومؤرخو الإمبراطورية الرومانية الشرقية (البيزنطية).**

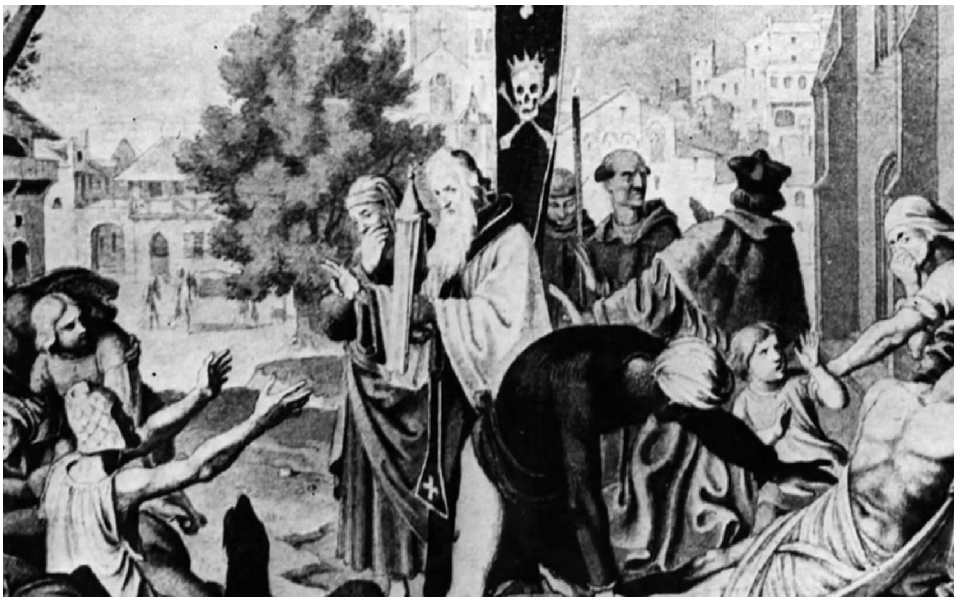

## قائمة المصادر والمراجع

- أبوبكر سرحان: مجتمع شمال أفريقيا تحت الاحتلال الروماني (٢٧ ق.م.- ٢٣٥م.)، ، دار نشر نور، ألمانيا.٢٠١٩،ص.ص. ٣٥، ٣٦.

ISBN:978- Noor Publishing

620-0-06640-4)27-7-2019

https://www.morebooks.de

https://www.noor-publishing.com

https://www.amazon.co.uk/Book-Search-Books/b?ie=UTF8&node=12555201

- إدوارد جيبون: اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها، الجزء الثاني، ترجمة؛ محمد سليم سالم، الطبعة الثانية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٧م.
- بروكوبيوس: التاريخ السري، القرن السادس الميلادي، جانب من جوانب حياة الإمبراطور جيستنيان وزوجته تيودورا وقائده المغوار بليزاريوس وزوجته أنطونينا صورة سيئة، ترجمة: صبري أبوالخير سليم، الطبعة الأولى ، ٢٠٠١.
- شارل أومان: الإمبراطورية البزنطية، ترجمة: مصطفى طه بدر، دار الفكر العربي، ١٩٥٣م.
- محروس عبدالقدوس سعيد: جوستنيان و سياسة الاسترداد، رسالة ماجستير غير منشورة بكلية الآداب جامعة الزقازيق، ١٩٨٧م.
- محمد فتحي الشاعر: السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية في عصر الإمبراطور جوستنيان، دار المعارف، القاهرة،١٩٩٢م.

- هسي،ج. م : العالم البيزنطي، ترجمة: رأفت عبدالحميد، الطبعة الثانية، دار عين للدراسات، القاهرة، ١٩٩٧م.

-Barker,Social and Political Thought in Byzantium, Oxford, 1957.

- Caesar: (Alexandrian, African and Spanish Wars) the African war(De Bello Africo), Translated by: Way, A.G., edited by: Page,T.E. and Others,(L.C.L),Harvard University Press, London, 1955.

-Cicero: The letters to his Family(Epistulae ad Familiares), Translated by: Williams, W.G.,edited by: Page,T.E.and Others,(L.C.L.), Harvard University Press, London, 1943.

- --------: De Lege Agraria, Translated by: Freese, J.H.,(L.C.L.), London,1956.

- Law,R.C.C.: North Africa in the Hellenistic and Roman Periods, 323B. C. to A.D.305, (the Cambridge History of Africa ) Vol. 2, from 500B. C. to A. 1050, edited by Fage, J.D. First published, London, 1978.p.215.

-There is not enough evidence satisfactorily to identify the disease ordiseases" concluded J. F. Gilliam in his summary (1961)

- Procopius: Histoire de la Guerre Des Vandales,Trad. Par: Durean de la Malle,Paris,1852.p.234.

- Whitham, M.A, The History of the Christian Church to the Separation of the East and West, 4th edition, London 1931,P.312.